الباب السابع

خلق الإنسان

١- " وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى أعلم مالاتعلمون " ٢/ ٣٠ .

٢- " وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لاعلم لنا إلا ماعلمتنا انك أنت العليم الحكيم . قال ياآدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ماتبدون وماكنتم تكتمون " ٢/ ٣٣ .

٣- " وإذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا ابليس أبى أن يكون مع الساجدين " ١٥/ ٤٣ .

٤- " ياأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام مانشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لا يعلم من بعد علم شيئاً " ٢٢/ ٥ .

فى هذه الآيات وفى آيات أخرى كثيرة يوضح لنا الخالق البارىء موضوع خلق الإنسان الذى بدأ بحوار بينه وبين الملائكة واطلاعهم على عزمه بخلق خليفة فى الارض . وهذا الحوار لم نكن لنعرف عنه شيئاً لو لم يخبرنا به الغفار القهار فى أكثر من مكان وبتفصيل يعكس أهمية القضية وحيوية هذا الأمر - أمر خلق

الإنسان - بالنسبة للإنسان نفسه الذى أنزل الله له هذا القرآن .

لقد سردنا فى الباب السابق أركان نظرية التطور وناقشناها فى إسهاب من الناحية العلمية وذلك حتى يعرف كل من جذبته هذه النظرية باسم العلم مقامها فى العلم نفسه ورأى العلم فيها . ولقد ذكرنا فى الباب السابق أن الدروانيين يضعون الإنسان مع القردة فى سلالة الثدييات ويفترضون أن بعض فصائل القرود العليا تطورت إلى ماسموه بالإنسان القرد ثم إلى الإنسان العصرى ، وكما رأينا فى الباب السابق أيضا انهم تركوا لخيالهم العنان فى رسم شجرة التطور الشهيرة وفى وضع فصائل الحيوانات والطيور والزواحف المختلفة على فروعها بدون وجود أى حلقة وصل بين تلك الفصائل والسلالات ، سوف نراهم فى هذا الباب وقد وقعوا فى نفس الخطأ بالنسبة لأصل الإنسان فأخذهم خيالهم وتصورهم بعيدا عن الحقيقة .

شكل ٧و١ إنسان بلتدون (Piltdown) اعتبره المصنفون لأكثر من ٤٠ عاما الحلقة المفقودة بين القرود القديمة والإنسان ، وأخيرا ظهرت حقيقته المزيفة ففكه لم يكن فك شمبانزى وأجزاء جمجمته التى وجدت لم تكن سوى أجزاء جمجمة انسان والباقى صلصال مشكل حسب خيال صانعه .

فبمجرد أن يجدوا فى المستحثات فكاً أو جزءاً من فك أو حتى سنّة ممكن أن تكون لقرد أو لإنسان أو لأى شىء يشبههما يبدأون فى تصوّر بقية أجزاء الجمجمة ثم الجسم ثم تقاطيع الوجه .. الخ .. كل ذلك مبنى على جزء من فك أو على سنّة فهم يستخدمون قليلا من العلم وكثيرا من الخيال .

ويكون من نتيجة ذلك ماحدث سنة ١٩٥٣ عندما اكتشف أن الإنسان القرد الذى سموه بيلتدون (Piltdown) واعتبره أكثر المتخصصين عينة نادرة حقيقية للإنسان القرد ، لم تكن جمجمته سوى فك وأسنان شمبانزى مضافة إلى جمجمة إنسان عصرى ، والفجوات التى لاحظناها بين فصائل وسلالات الكائنات الحية والحقائق التى ذكرناها بخصوص عدم وجود أى حلقات اتصال بين الفصائل والسلالات المختلفة هى أقوى دليل هنا أيضا فى حديثنا عن الإنسان على عدم صحة التطور . فكل مايقال على أن نوعاً معيناً من القرود العليا تطور بعد ذلك فزاد حجم مخه وأصبح قادرا على استخدام آلات بدائية فسموه بإنسان نيزر ثال (Homo sapiens) وأخيرا جاء منه الإنسان العصرى ، ليس إلا مجرد خيال وفرض وحبر على ورق ، وسوف يظل حبرا على ورق وخيالا وفروضا لأن الأدلة على حدوث التطور نفسه لم ولن توجد .

وكما وجدنا فى السؤال الثامن فى الباب السابق تناقضا واضحا بين إدعاء تطور بعض فصائل الأسماك إلى برمائيات وبعض البرمائيات إلى زواحف ثم إلي طيور وثدييات وبين حقيقة وجود فصائل من هذه السلالات بيننا الآن ، نجد فى هذا الباب نفس النوع من التناقض . فحتى الآن مازلنا نرى عائلة القرود الأوطى يعيشون حولنا فى اطمئنان وثبات وبدون أى تهديد باحتمال تطورهم . كذلك لانجد أي صورة أخرى من الصور الوسطى للتطور . فنحن نرى حاليا أنواعا من الشمبانزى والغوريلا وحتى القرد الذى درجوا على تسميته بإنسان الغاب (Orangulan) والذى يسكن سومطرة نراها جميعا ولانرى أى أثر للإنسان القرد لماذا انقرضت جميع أنواع الإنسان القرد ولم يتبق إلا الإنسان والقرود ؟

والمستحثات تعطى أدلة فعلا بأن نوعاً من الكائنات الحية سموه الدروانيون بالإنسان القرد وجد وعاش فعلا على الأرض فى أماكن وأزمان مختلفة ولكن المستحثات لاتعطى اطلاقا أى دليل على أن هذا الكائن الحى تطور من القرود أو أن الإنسان العصرى تطور من هذا الكائن الحى المسمى بالإنسان القرد ، وبالرغم من أن تسمية هذا الكائن بالإنسان القرد فيها كثير من المغالطة ومحاولة فرض فكرة التطور ، إلا أننا سنحتفظ بهذه التسمية فى هذا الفصل لسبب واحد وهو أن هذا الكائن الحى كان يعيش منتصبا كالإنسان ولكن مخه وجمجمته وعظام فكه كانت أشبه بأعضاء القرود . فإسم الإنسان القرد فعلا يصف بعض مظاهره .

وقبل أن نسترسل فى هذا الحديث وحتى لاتستبد الحيرة بالقارىء من أمر هذا الإنسان القرد من أمر وجوده أو من الدور الذى لعبه نحتاج هنا لسرد مالدينا من حقائق عنه قبل أن نبدأ الحديث عن خلق الإنسان كما جاء فى القرآن الكريم .

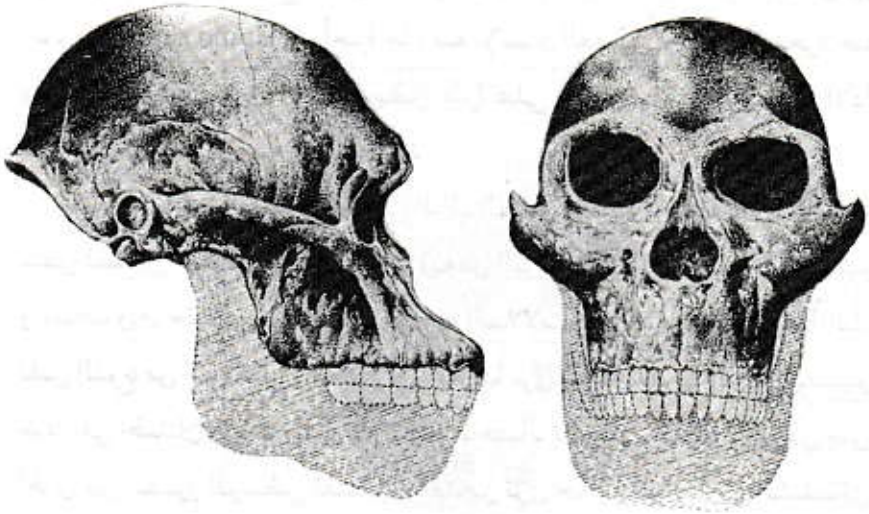

شكل ٢.٧ أجزاء من جمجمة انسان لوسى (Australo pithecus) الذى يعتبره الدروانيون الجد الأكبر لفصيلة الإنسان ! ذلك بالرغم من أن النتوءات البارزة فى عظام الصدغ والحواجب شديدة الشبه بمثيلها فى جمجمة القرود العصرية مثل الشمبانزى (شكل ٣.٧) . كل ماهناك أن إنسان لوسى كان يمشى على قدمين .

١٠٧ حقائق عن الإنسان القرد

يبدأ تاريخ هذا المخلوق بمستحاثات لكائنات حية عاشت فى افريقيا منذ مايقرب من ٣ر٥ مليون عام . وقد اتصفت هذه الكائنات بصغر حجمها وصغر مخها النسبى وكانت هذه المخلوقات تمشى على قدمين وتمتاز بأنياب قصيرة . كذلك وجد أثار لبعض الآلات الخشبية التى يرجح بعض الباحثين استخدامهم لها . ومن أشهر هذه الكائنات ماعرف بإنسان لوسى (Australo pithecus شكل ٢٠٧) وبعد ذلك بما يقدر بمليون عام ظهرت كائنات حية أخرى تشبة إنسان لوسى هذا ولكنها كانت أضخم منه حجما كذلك لوحظ زيادة طفيفة فى حجم مخها . وقد سميت هذه الكائنات بالإنسان المنتصب (Homo erectus) ويبدو أن هذا المخلوق كان يزاول مهنة الصيد وذلك بناءً على ماوجد فى عهده من أحجار وعظام حيوانات يبدو شكلها كالآلات وبعد ظهور هذا الإنسان المنتصب بحوالى مليون عام انقرض المخلوق الأول الذى يسمى بإنسان لوسى .

والمستحاثات تخبرنا بأن الإنسان المنتصب عاش حياة طويلة على الأرض وفى أماكن مختلفة . فقد وجدت مستحاثات هامة له فى افريقيا وآسيا وأوروبا وقد يكون أهمها كلها المستحاثات التى وجدت قرب مدينة بكين فى الصين ولذلك سمى بإنسان بكين . وأهم اختلاف بين التكوين الجسدى - حسب مايستنتج من المستحاثات - للإنسان المنتصب والإنسان العصرى هو تكوين الجمجمة . فجمجمة إنسان بكين كانت سميكة مفلطحة ذات نتوء حاجبى ، كذلك كانت اسنانه قوية وكبيرة . وقد وجد مع بقايا هذا المخلوق فى نفس الكهف آلات معظمها حجرية ولكنها مختلفة النوع والشكل والحجم فمنها ماهو مدبب كالمخرز ، ومنها ماهو مفلطح كالمنقاش ، ومنها مايبدو كالقواطع . كذلك يبدو من البقايا التى وجدت مع إنسان بكين أنه كان يعرف النار . فقد وجد فى الكهف رماد يرجع تاريخه إلى مابين ٢٣٠٠٠٠ ، ٤٦٠٠٠٠ عام .

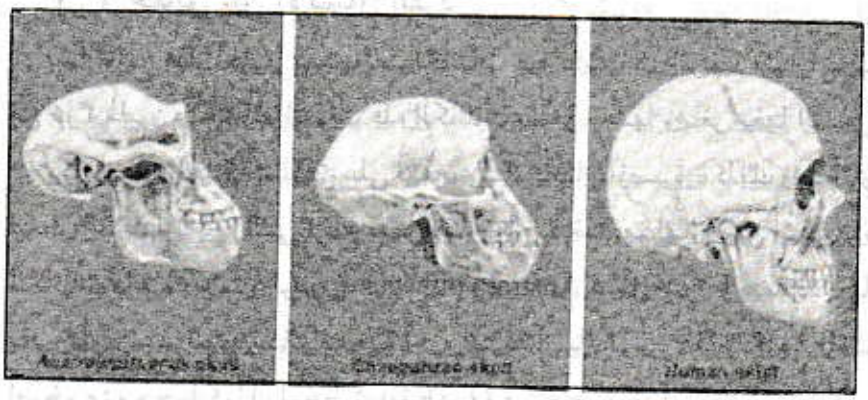

الإنسان العصرى　　الشمبانزى　　إنسان (أو قرد) لوسى

شكل ٧ . ٣ مقارنة بين جماجم الإنسان العصرى والشمبانزى وماسمى بإنسان (أو قرد) لوسى . لقد بدأ بعض البيولوچيين يفطنون إلى أن جمجمة إنسان لوسى أقرب إلى جماجم القرود منها إلى جمجمة الإنسان .

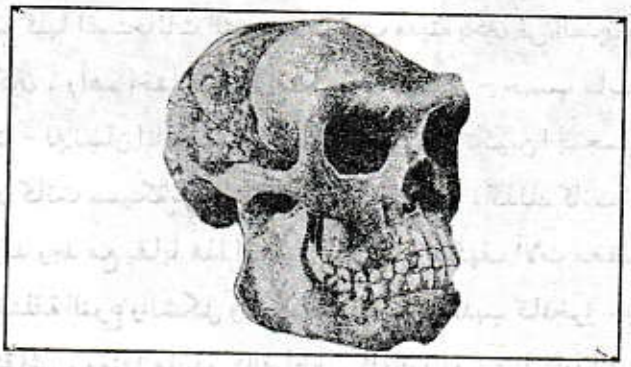

شكل ٧ . ٤ جمجمة الإنسان المنتصب أو إنسان بكين الذى انقرض منذ مايقرب من مائة ألف سنة . هل يعقل أن تتطور هذه الجمجمة فى خلال بضع عشرات الآلاف من السنين إلى جمجمة الإنسان العصرى بعد أن ظلت على نفس الصورة مئات الألوف من السنين بدون تغير يذكر ؟ أليس من الأدق أن نسميه بالقرد المنتصب ؟

وأكثر الرماد الذى وجد كان فى هيئة أكوام . فهل استطاع إنسان بكين أن يوقد النار ويتحكم فيها ؟ لم يستطع أحد الإجابة على هذا السؤال غير أن أغلب الباحثين يرجحون ان انسان بكين كان يعتمد على مصادر النار الطبيعية خارج كهفه كالصواعق مثلا وأن ذكاءه لم يصل إلى حد اشعالها بنفسه .

كذلك يبدو أن إنسان بكين هذا كان مغرما بلحم الغزال فقد وجد فى نفس الكهف بقايا مايقرب من ٣٠٠٠ غزالة . ولصعوبة صيد الغزال يرجح أن ذلك المخلوق كان يعيش فى جماعات أو مجتمعات تتعاون فى الصيد وتتشارك فى الأكل وربما فى بعض الأنشطة الاجتماعية الأخري . كانت هذه بعض خواص أحد أنواع الإنسان المنتصب المعروف بإنسان بكين . وكما انقرض إنسان لوسى انقرض الإنسان المنتصب هو الاخر منذ مايقرب من ٣٠٠٠٠٠ عام ، ليظهر نوع آخر سمى بالإنسان البدائى (Homo sapiens) .

ولم يلاحظ تغيُّرا يذكر فى حجم مخ هذا الإنسان البدائى المفروض أن يكون أذكى من سابقه الإنسان المنتصب ، ولافى أنواع الآلات التى كان يستخدمها ، وأهم مستحاثات هذا الإنسان ماوجد بالقرب من بلده نيندر (Neander) فى المانيا . وأخيرا ومنذ مايقرب من ٤٠٠٠٠ عام فقط ظهر على مسرح الحياة الإنسان العصرى . وبظهوره اختفت جميع أنواع الإنسان القرد والسابقة . واختفاؤها مازال سرا غامضا محيرا . فهل كان اختفاؤها نتيجة انقراض طبيعى ؟ أم نتيجة كارثة جوية أو ارضية ؟ أم نتيجة تهجين مخلط (cross breeding) بين فصيلتين مختلفتين مثل الحصان والحمار فينتج كائن جديد ليس له قدرة على الاخصاب مثل البغل ؟ أسئلة حائرة لاتزال بلا جواب .

كان هذا عرضا مبسطا لأنواع الكائنات الحية التى سميت بالإنسان القرد والتى وجدت وعاشت على سطح الأرض مئات الآلاف من السنين قبل ظهور الإنسان العصرى الذى لم يبدأ فى فلاحة الأرض – على حد تقدير المؤرخين إلا منذ عشرة آلاف عام ، ومن هذا العرض السريع نستطيع أن نخرج ببعض النتائج الهامة وهى:

أولا : وجدت مستحاثات لمجموعات مختلفة من فصائل أعتبرت أرقى من القرود تمشى منتصبة وربما تمكنت من استخدام النار وعمل أو استخدام آلات معظمها حجرية .

ثانيا : لم يحدث تغيُّر يذكر فى الخواص الرئيسية لهذه المجوعات لمدة تزيد على ٥ر٢ مليون عام غير ازدياد نسبى صغير فى حجم أمخاخهم .

ثالثا : انقرضت على التوالى جميع أنواع هذه المخلوقات التى سميت بالإنسان القرد لأسباب غير معروفة .

رابعا : لايوجد أى دليل على أن الإنسان القرد حتى فى آخر صوره منذ مايقرب من ٤٠٠٠٠ سنة كانت له المقدرة على الكلام ، والأرجح أنه كان يصدر أصواتا مثل القردة تعكس انفعالات وتستخدم لتوصيل أحساسات أكثر من كونها لغة للتخاطب .

خامسا : وجود فجوة واسعة واختلاف بَيّن بين خواص وإمكانيات آخر فصائل الإنسان القرد وهو مايعرف بالإنسان البدائى (Homo sapiens) الذى عاش منذ حوالى ٥٠٠٠٠ عام .

وخواص وامكانيات الإنسان العصرى تزيد بمراحل عن الاختلاف فى خواص وامكانيات انواع الإنسان القرد المختلفة على طول مدة تزيد عن مليونين ونصف من الأعوام .

وهذه النقطة الأخيرة هى من أهم الصعوبات التى يقابلها الدروانيون ويحاول الكثير منهم التغاضى عنها . كيف عبرت آخر فصائل الإنسان القرد - وهو ماسمى بالإنسان البدائى - هذه الفجوة الواسعة التى تفصله عن الإنسان العصرى ؟ فالتغييرات التى حدثت فى انواع الإنسان القرد المختلفة على مدى مليونين ونصف من الأعوام هى تغيرات تافهة إذا قورنت بالاختلاف بين الإنسان البدائى والإنسان العصرى . فلماذا لم يحدث تطور يذكر - إذا كان هناك وجودا لمثل هذه الكلمة - لمدة مليونين ونصف من الأعوام وفجأة وفى خلال بضعة آلاف من السنين حدث

انفجار تطورى ؟ واذا بالإنسان القرد يتكلم ويتفاهم وإذا بنا نراه يكتب ويؤلف . نراه يفكر ويخترع نرى له قيما ومباديء وذوقا واخلاقا نرى له ضميرا ومثلا عليا نرى له عادات وتقاليد وعرف نرى له . . . .

أين كان كل ذلك مختبئا فى الإنسان القرد ؟ ولماذا ظل مختبئا لمدة ٢ر٥ مليونا من الأعوام ثم انفجر فجأة فى بضعة آلاف من الأعوام ؟ فهذا لايتمشى اطلاقا مع فرض دراوين القائل بأن عملية التطور عملية تدريجية لايعتريها تغيرات فجائية ، انه يعارضه على طول الخط .

سادسا : عدم وجود أى مستحاثات لحلقات تطور بين فصائل القرود والإنسان القرد أو بين الإنسان القرد والإنسان العصرى . فمجرد وجود مستحاثات للإنسان القرد لايعتبر دليلا على حدوث التطور فالدليل الوحيد على حدوث التطور هو العثور على مستحاثات قرود مثلا فى حالة تطور إلي مخلوق آخر مثل الإنسان القرد أو العثور على عظام غير كاملة التكوين لما يسمى بالإنسان القرد وهو فى سبيل التحول أو التطور إلى عظام انسان عصرى . أما العثور على عظام كاملة التكوين لمخلوقات تختلف عن عظام القرود فليست دليلا على حدوث التطور ، ولو وجد بعض الشبه بين عظامها وعظام الإنسان ، فهو إن كان دليلا على شيء فإنما هو دليل على وجود عائلة أو نوع مختلف من فصيلة معينة تماما كما أن وجود الكلاب والثعالب والذئاب لايصح بأن يأخذ دليلا على حدوث التطور ، فقد خلقها الله فى صورتها الكاملة لكل مميزاته وخواصه وعاداته وإن وجد بعض التشابه بينها .

ومن هذا المنطق يبدو لنا الآن لغز الإنسان القرد سهلا لاعقد فيه ولافجوات واسعة يصعب عبورها .

فالإنسان القرد ليس إلا مخلوقا خلقه الله فى صورته الكاملة كأى مخلوق آخر لم يمر بتغير ولابتطور يذكر فقد يبدو كفصيلة من فصائل القرود التى تضم أشكالا وأنواعا مختلفة تبدأ بالنسانيس الصغيرة وتنتهى بالغوريلا الضخمة وتضم عائلات

مختلفة منها ماهو فى ذكاء الشمبانزى التى تستخدم العصى فى التخويف والهجوم وفى الجس ومضايقة الغير ، وتستخدم فروع الشجر وسيقان أوراق الشجر فى جمع النمل الأسود والأبيض وتستخدم اوراق الشجر فى غسل نفسها والأحجار فى قذفها على اعدائها بدقة لا تقل عن دقة الإنسان فى التصويب على الهدف . والأدلة التى تركها الإنسان القرد فى المستحاثات لاتبرهن بأن مستواه من الذكاء كان ارفع من مستوى الشمبانزى . فالإنسان القرد اذن ليس إلا فصيلة مختلفة خلقها ذو الجلال والإكرام كما خلق أى دابة أخرى " *يخلق مايشاء إن الله على كل شيء قدير* " والآن حان موعد العودة إلى الآيات القرآنية .

٢.٧ قرار خلق الإنسان

أول مايلفت نظرنا فى موضوع خلق الإنسان كما جاء فى القرآن الكريم هو ذلك الحوار الذى دار بين مالك الملك وبين الملائكة وجاء ذكره بالتفصيل لحيوية هذه القضية وأهميتها بالنسبة للإنسان فلولا إخبار الرحمن الرحيم لنا به ماعلمنا عنه شيئاً وماعلمنا كيف ولا لماذا خلقنا ؟

ويبدأ الحوار كما جاء ذكره فى الآية التالية " *وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة* " أنه قرار الخالق البارىء اتخذه جل شأنه بنفسه ، وعظمة الحليم العظيم تتجلى فى رغبته فى إطلاع الملائكة على هذا القرار حتى من قبل أن يخلق هذا المخلوق الجديد ، والعلم والاكتشافات تخبرنا بوجود مخلوقات كثيرة على الأرض قبل آدم خلقها الحى القيوم لتملأ الارض وتحلق فى السماء ، وتسبح فى الماء كذلك خلق البديع الباقى الجن قبل آدم " *ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمىء مسنون ، والجان خلقناه من قبل من نار السموم* " ١٥/٢٧ ولكن القرآن الكريم لم يذكر لنا أى حديث سابق بين ذو الجلال والإكرام وبين الملائكة يحمل خبر عزمه على خلق أى مخلوق من تلك المخلوقات الأخرى ، فخلق الإنسان إذن كانت له أهمية خاصة تفوق أهمية خلق أى كائن حى آخر عاش على الأرض بل وربما فى أقطار السماء . انه أول تكريم من الخالق العظيم لهذا الكائن الجديد ، تكريما يعكس المنزلة الرفيعة التى حجزها البديع الباقى لهذا الإنسان حتى قبل خلقه .

كذلك نلاحظ أن الله تعالى اختار كلمة خليفة كصفة لهذا المخلوق الجديد . لم يصفه بالسيد ولا بالرئيس ولا بالملك بل وصفه بالخليفة ، فلا شك أن كلمة خليفة تعبر بصورة أدق عن مهمة الإنسان على الأرض . فالخلافة تشمل الإمارة ومما لاشك فيه أن الإنسان أمير الكائنات الحية على الأرض فقد عرف كيف يتغلب على أضخمها من الحوت والقرش ويستخدم أقواها مثل الفيل والحصان ، فبالرغم من قوة هذه الحيوانات الجسمية نراها كلها مذللة للإنسان بل مزللة لصبى صغير يقودها إلى حيث يشاء ويضربها وينهرها وهى مطيعة راضية لاترد الصاع صاعين ولو أنها

قادرة على ذلك . كذلك عرف الإنسان كيف يتفادى سموم أخطرها من الزواحف والكائنات الميكروسكوبية أمثال الفيروس والباكتريا ، بل ويستخدم بعض هذه السموم كأدوية وعقاقير ، وعرف كيف يؤلف الكثير منها ويربيها للحمها ولبنها ووبرها ، لقد جعل الله فى الإنسان صفة الإمارة على هذه المخلوقات يأمرها فتنصاع له وتطيعه .

والخلافة تشمل أيضا النيابة عن الغير ، لقد أناب الحكيم الودود الإنسان للقيام بمهام معينة وكلفه برسالة محددة فى حدود نواميس موضوعة وتبعاً لخطة سابقة منه. فالإنسان يستطيع أن يغير من معالم الأرض كيف أراد فيبنى على الأرض مبانى أو يستخدمها للفلاحة ، أن يستخرج من الصحراء بترولا وطاقات أخرى أو يحولها إلى جنات وزرع ، أن يغير مجري الأنهار ويحول الليل إلي نهار أو أن يثقب الجبال ويزيل من أمامه الهضاب والتلال . والإنسان بإمكانه أن يعيش مع المخلوقات الأخرى فى سلام ووئام أو يقتلها ويملأ الأرض بالدماء وبإمكانه أن يزخرف الأرض ويزينها أو يفنيها بمن فيها فى يوم وليلة ، وقد وهب الوهاب الخبير للإنسان من الصفات والخواص مايجعله قادراً على التحكم فى هذه النيابة بحكمة فأعطاه العقل والضمير وجعله مسؤولا عن استخدامهما فى حدود امكانياته .

والخلافة تشمل أيضا الإمامة ، فالإنسان بحكم هبات الخالق من مقدرة على التفكير والتدبير والتصميم أصبح اماما للكائنات لايسع أي منها إلا أن ينصاع لأمره ويتبع خطاه . فإذا أراد الإنسان للكائن الحى أن يعيش خادما مطيعا أو أن يموت صاحبا أمينا كان له ذلك ، وإذا أراد أن ينقلها من مكان إلي مكان كما يحلو له فلن يستطيع أحدها أن يبدى اعتراضا أو أن يقوم بثورة ضد الإنسان فحياته ومأكله ومشربه مربوطة بهذا الإمام .

إن المشيئة العليا التى قررت أن توجد هذا الكائن الجديد هى نفسها التى قررت أن تسلمه زمام هذه الأرض وتطلق يده فيها ليكتشف ماوضعه الخالق فيها من أسرار ونواميس ، ويكشف مافيها من موارد وطاقات ثم ليستخدم ذلك كله لفائدته

ومصلحته ورقيه وتطوره ، ومن أجل أن تساعده فى القيام بالمهمة الضخمة التى وكلها الله إليه ألا وهى الخلافة على الأرض .

ولكن الملائكة الذين لاعلم لهم بالغيب ولابتفاصيل تلك المهمة ولابإمكانيات هذا المخلوق الجديد يستفسرون فى أدب وتعجب " *أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك* " وسؤال الملائكة يدل على أن لهم تجارب سابقة مع مخلوقات أخرى عاشت على الأرض وأكثرت فيها الفساد وسفكت الدماء قد تكون هذه المخلوقات هى أنواع الإنسان القرد أو إنسان الغاب التى سبقت ظهور الإنسان على الأرض والتى لم يكن همها إلا سفك الدماء إما للدفاع عن النفس وإما لملء بطونها الخاوية . ومن يعلم ربما كانت هذه الحروب بين الفصائل المختلفة أو بين أفراد الفصيلة الواحدة هى أحد أسباب الانقراضات المتتالية التى حدثت لكل أنواع الإنسان القرد فأنهتها عن آخرها .

ومن ناحية أخرى لقد وجدنا فى المستحاثات مايثبت بأن الإنسان القرد كان على معرفة بالنار وباستخدامها ، وليس معنى ذلك أنه تعلم طريقة إشعالها أو التحكم فيها . بل من الأرجح أنه كان أكثر اعتمادا - كما ذكرنا فى الفصل السابق - على مصادر النار الطبيعية مثل الصواعق . وربما دفعته رغبته فى استخدام النار من ناحية وجهله باشعالها والتحكم فيها من ناحية أخرى إلى إيقاد شعلات دائمة فى الأخشاب والأشجار لتكون مصدره الدائم ، فتسبب ذلك فى حرق كثير من الغابات والنبات وربما سبب انقراضا فى أنواع معينة من الكائنات الحية من فصائل ذلك الإنسان القرد ومن فصائل أخرى .

وكان نتيجة ذلك أن عمَّ الفساد فى الأرض بسفك الدماء من ناحية وبإشعال الحرائق من ناحية أخري . فكان ذلك سببا كافيا لتشكك الملائكة فى امكانيات هذا المخلوق وفيما سوف يقوم به ، وخاصة اذا كانت الملائكة لم تر أى شىء إيجابى قام به هذا الإنسان القرد . فكان هذا الاستفسار الذى يحمل فى طياته التعجب والدهشة مقرونا بتجربتهم المريرة ومشاهداتهم السابقة .

وعندئذ جاءت إجابة العليم البصير " *إنى أعلم مالاتعلمون* " فهو وحده الذى يعلم خواص هذا الكائن الجديد .هو وحده يعلم بإمكانياته فهو الذى سيضعها فيه ، وهو وحده الذى يرى ماسوف يقوم به هذا الكائن من انجازات فى بناء هذه الارض وعمارتها وفى ترقيتها وتعديلها . قد يفسد أحيانا ويسفك الدماء أحيانا أخرى ولكن هناك خير أعم وأشمل سيتم من وراء هذا الشر الجزئى الظاهر على يدىّ ذلك الخليفة ، خير النمو الدائم والرقى المستمر ، خير التطوير والتغير فى هذا الملك الكبير ، خير المعرفة التى تتضاعف والإمكانيات التى تزداد ، خير العزيمة التى لاتضعف والمحاولة التى لاتكف ، خير التفكير الذى لايهدأ والتطلع الذى لايقف ، والمحرك الأساسى لكل ذلك هى تلك الغرائز الأساسية التى خلقها الظاهر الباطن فيه وثمرتها عند أولى الألباب هى معرفة صفات القدرة والكمال لدى العزيز الحكيم والرحمن الرحيم وعبادته عن علم وتقواه حق تقاته .

كل هذا كان فى علم الغيب فلم تعلم الملائكة عنه شيئا فكان جواب الملك القادر بأنه وحده يعلم الغيب " *قل لايعلم من فى السماوات والأرض الغيب إلا الله ومايشعرون أيان يبعثون* " ٦٥/٥٧ وإلى جانب أخبارهم بهذه الحقيقة أعد الغفار القهار للملائكة ايضاحا واثباتا عمليا لقوله ، وهذا هو موضوع الفصل الثانى .

٣.٧ بين تكريم الخالق البارىء وعداوة ابليس

ويتابع القرآن الكريم إخبارنا ببقية أحداث قصة خلق الإنسان فى الآية التالية *"وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين"* ٢/٣١ . وهنا بدأت عملية التوضيح واثبات ماقاله الخالق البارىء للملائكة ، فبعد أن خلق آدم من تراب بدون أب وأم قام الأحد الصمد نفسه بتعليمه أسماء الأشياء فلولا معرفة هذه الأسماء لما تم التفاهم بين الناس ، وماوجد الكلام وماكان للغات التى نتحدث بها معنى ، فأول مايتعلمه الطفل - حتى قبل الكلام- هو أسماء الأشياء ، ولن يستطيع الطفل أن ينطق باسم أى شىء قبل أن يعى أن لهذا الشيء اسم ، فهو يرى الشىء ويسمع اسمه ثم يربط بين الصورة والصوت أو الرؤيا والسمع ، ثم يبدأ بعد ذلك فى تقليد هذا الصوت الذى يدل على اسم ذلك الشيء وآدم لم يمر بمرحلة الطفولة ولم يكن له أب وأم يعلمانه فقام الله جل جلاله بالدور الذى يقوم به الأب والأم عند تعليم اطفالهم اسماء الأشياء والكلام ، فكان هذا بمثابة تكريما جديدا لآدم ولبنى الإنسان .

وكما رأينا فى الفصل السابق أن الملائكة لم تنتظر أو تتوقع من الكائنات الحية الأرضية إلا سفك الدماء والفساد .

فتلك كانت رسالة الماضى القريب ، وحتى ذلك المخلوق الذي سميناه بالإنسان القرد - وربما كان أرقاها - لم تكن له القدرة على الكلام ، وذلك حسب إجماع الباحثين ولو أن اثبات ذلك قد يكون من الصعوبة بمكان ، فهم يرجحون أن هذا المخلوق الذى سميناه بالإنسان القرد كان يصدر أصواتا كأصوات القرود لمجرد نقل شعورا أو إحساسا معينا كالغضب والخوف والسرور والجوع الخ .. إذا أخذنا كل هذا فى الاعتبار استطعنا أن نقدر وقع ذلك على الملائكة ، لاشك أنها كانت مفاجأة كبيرة أن يروا هذا المخلوق الذى أبدوا تشككهم فى مقدرته ونياته قادراً على الكلام وقادراً على التعلم بل ومتفوقاً عليهم فقد أنبأهم باسماء لايعرفونها .

لاشك أن هذه الطفرة التى خطاها آدم فى مطلع حياته كانت من أهم الطفرات

كلها ومن أهم الخواص التى ميزته عن بقية الكائنات الحية ورفعته إلى هذه الدرجة العالية ، فالدروانيون الجدد والقدامى على السواء لايملكون إلا وضع أيديهم فى أفواههم من الحيرة عندما يدور الحديث عن تلك الفجوة العميقة التى تفصل آخر فصائل الإنسان القرد من الإنسان العصرى فكيف تعلم الإنسان الكلام وكيف تعلم تسمية الأشياء باسمائها وكيف تعلم الكتابة . قد تبدو هذه الأشياء طبيعية روتينية بالنسبة لنا لأننا تعلمناها فى الصغر ولكن الإنسان القرد لم يكن له علم بوجود تلك الأشياء فكيف يتمكن من اختراعها أو ايجادها فجأة بالرغم من أنه عاش ملايين السنين لايعلم عنها شيئا ؟

ويجيء القرآن ليخبرنا بالحقيقة وبتفاصيل نظرية خلقنا وبسر تعلمنا الكلام واسماء الأشياء وسر تعلمنا الكتابة " *اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم* " ٩٦/ ٥ .

ويعود الحديث بنا مرة أخرى إلى الملائكة الذين اعترفوا بعجزهم ولم يعرفوا هذه الأسماء " *قالوا سبحانك لاعلم لنا إلا ماعلمتنا انك أنت العليم الحكيم* " ٢/ ٣٢ ربما لم يحتاجوا لمثل هذه الأسماء فلم يعلمها العليم الحكيم لهم ، وربما كانت لهم طريقة أخرى للتفاهم كالتخاطر أو غير ذلك ، المهم انهم فشلوا فى معرفة هذه الأسماء وعندئذ أمر الواحد الماجد آدم بأن يخبرهم بأسمائهم " *قال ياآدم انبئهم باسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم انى اعلم غيب السموات والأرض واعلم ماتبدون وماكنتم تكتمون* " ٢/ ٣٣ . واجتاز آدم الامتحان استطاع أن يتعلم الأسماء ويتذكرها وينطق بها . فأثبت للملائكة أنه يختلف عن كل الكائنات الأخرى التى سكنت الأرض والتى عرفتها الملائكة ، والأكثر من ذلك أنه يمتلك من الخواص مايميزه عن الملائكة ، فهو يمتلك القدرة علي التفاهم بالكلام وعلى التعلم والمعرفة ويمتلك الارادة الذاتية المستقلة ، وقد يمتلك خواص أخرى لاتوجد فى الملائكة مثل القدرة على التفكير والاكتشاف ونقل مايتعلمه إلي الأجيال اللاحقة ومثل أمانة الهداية إلى سبيل الله باستخدام منطقه ومحاولته الخاصة - كما سوف نتعرض إلى

ذلك فى الفصول القادمة - ولذلك فقد صدر الأمر من العلى القدير بالسجود لآدم ، فكان ذلك بمثابة التكريم الثالث والأكبر لهذا الكائن الجديد ، انه شرف لم ينله مخلوق من قبله " *وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين* " (٢/٣٤) .

وصدور الأمر من الله تعالى إلى الملائكة بالسجود لآدم هو رمز منهم على تسليمهم بخلافته في الأرض وأن الله تعالى قد سخر له مافى السماوات والأرض جميعا ، ولما كانت الملائكة موكلة من الله تعالى بحفظ الخلق فالأمر الصادر إليهم صادر بالتالى إلى من وراءهم من الخلائق فى السماوات والارض . وسجدت الملائكة كلها امتثالا لأمر المؤمن المهيمن فهم لايعصون الله ماأمرهم ويفعلون مايؤمرون إلا ابليس . لقد كان ابليس مع الملائكة - ولو أنه ليس منهم - وأمر كما أمروا بالسجود ولكنه رفض واستكبر وكان من الكافرين ، لقد كان ابليس من الجن ففسق عن أمر ربه " *إلا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه* " ١٨/ ٥٠ . وبدت بوادر عصيانه وتمرده على خالقه .

والذى يبدو من الآيتين السابقتين ومن نصوص أخرى فى القرآن الكريم أن الجن يتمتعون بارادة مستقلة مثلهم مثل الإنسان فى ذلك فمنهم الكافر ومنهم المؤمن " *وانا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا . وانا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هربا وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلايخاف بخساً ولارهقاً ، وانا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً* " (٧٢/١٤) ، وهذا يفسر عصيان ابليس لأوامر الخالق . فقد كان ابليس من الجن والجان خلق من نار "*وخلق الجان من مارج من نار* " (٥٥/١٥) . والنار صورة من صور الطاقة قد تبدو أرقى من الطين الذى خلق منه آدم " *خلق الإنسان من صلصال كالفخار* " (٥٥/١٤) فالطين مادة والنار طاقة ، والطاقة كما رأينا فى الباب الرابع تنتقل بسرعة الضوء والاحساس بالزمن يتوقف لمن سار بسرعة الضوء ويصل إلى حالة تكاد أن تتصف بالخلود وربما هذا يفسر عمر ابليس الطويل من قبل خلق آدم

حتى اليوم !

وقد يفسر أيضا سبب استكباره ورفضه السجود لآدم ، " *قال ياابليس مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى استكبرت أم كنت من العالين قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين* " ٣٨/٧٢ .

فيبدو أن ابليس فطن إلي أهمية الاختلاف فى خلقه وخلقنا ، فى تكوينه وتكويننا فى طبيعته وطبيعتنا ووجد أن هناك ضعفا معينا فى الإنسان يمكن أن ينفذ إليه من خلاله فيخلط عليه أمره ويفسد قراراته . قد تكون نقطة الضعف هذه هى من خلال شهوات الإنسان ورغباته ، ولكن طريقة نفاذه وميكانيكية وسوسته لاتزال مجهولة بالنسبة لنا . فكيف تتم هذه الوسوسة بهذه الصورة المتخفية حتى يختلط الأمر على الإنسان بهذه الدرجة فيظن أنها رغباته الذاتية الأساسية ؟ هل هى موجات كهرومغناطيسية تصل مباشرة إلى اعصاب المخ ؟ أم هل يستخدم ابليس مانسميه بالتخاطر ؟ (Telepathy) أم هل هو اتصال نفسانى أو اتصال روحانى ، هذا مالم يستطع العلم اكتشافه وقد لايستطيع العلم أن يصل إلى ذلك السر . فلو عرفنا ميكانيكية اتصاله بنا لاستطعنا أن نمنعها وأن نعيش فى سلام آمنين من وساوس الشياطين !

والواقع أنه لايوجد إلا طريقة واحدة تمكنا من قطع اتصاله بنا - ولو اننا لانعرف كيفية هذا الاتصال - انها الطريقة التى دلنا عليها السميع العليم فى قوله " *وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم* " فالطريقة هى ذكر الله والاستعاذة والاستعانة به ، انها الإيمان به واللجوء إليه من شر ماخلق فهو تعالى القائل " *إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا* " .

فبعد أن فطن إبليس إلى قدرته علي الاتصال بنا والتأثير على قراراتنا عن طريق ارادتنا الحرة المستقلة ، اراد أن يثبت وجوده ويرىَ الخالق وربما الملائكة أيضا انه أقوى من هذا الإنسان وأن هذا الإنسان ليس أهلا لهذا التكريم وليس بأفضل منه فهو قادر على غوايته وقادر على التأثير عليه ليعصى خالقه ، ولاشك أن هذا

كان امتحانا عسيرا لإبليس نفسه امتحانا بين طاعة الخالق وسجوده لآدم بالرغم من أنه يعلم أنه قادر على غوايته وغواية الكثير من ابنائه وبناته ، وبين معصية الخالق ومايتبعها من عقاب ومايتبعها أيضا من اشباع لغروره واثبات لوجوده ومقدرته على غواية آدم وابنائه ، ويبدو ذلك فى الحوار التالى " *قال فأخرج منها فانك رجيم وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين قال رب فانظرنى إلى يوم يبعثون قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم ، قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين* " (٣٨/٧٧-٨٣) . وفى آية أخرى يقول " *قال فبما اغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولاتجد أكثرهم شاكرين* " (٧/١٤) وفى آية ثالثة " *قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين* " (١٥/٤٢) .

ومن الآيتين الأخيرتين يتضح لنا صفتان هامتان من صفات إبليس الأولى تكبره وغروره وتبجحه على خالقه ، فقد رفض أوامر خالقه وعصاه وأعلن عليه التمرد لمجرد أنه شعر فى نفسه شيئا أقوى أو أفضل من ذلك الإنسان الذى أمره الخالق بأن يسجد له فسول له غروره أن يعصيه بل ويتبجح عليه بقوله " *بما أغويتنى* " فالحكم العدل لم يغوه ولكنه هو الذى غوى .

لقد خلقه الله عز وجل من نار ووهب له من القوة والمقدرة مايصعب علينا ادراكهما ولكنهما يمكناه على الأقل من الوصول إلي النفس البشرية وغوايتها ، وقد كان بإمكانه أن يستخدمهما فى طاعة الخالق وفى الخير - كما كان يفعل قبل خلق ادم- فقد كانت له الإرادة المستقلة الذاتية فى أن يظل فى طاعة الله أو أن يغوى فاختار الأخيرة وغوى ، وأما الصفة الثانية فهى نزعة الشر فيه وميوله للانتقام ، فحتى بعد أن غوى كان بإمكانه أن يستغفر ويتوب أو أن يطلب من الغفار التواب أن يمد فى أجله حتى يوم البعث ليندم على خطيئته كما فعل آدم من بعده كما سوف نرى بعد قليل ولكنه طلب أن يمد الله أجله حتى ينتقم من ذلك الإنسان الذى كان سببا فى طرده من الجنة ولو أن ذلك الإنسان فى حد ذاته لم يسبب له مباشرة

أى أذى ولم يتعد عليه بل ولم يدس له على طرف !

وهنا جاء رد القوى المنتقم " *قال هذا صراط على مستقيم ان عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين وأن جهنم لموعدهم أجمعين* " (١٥/٤٣) لقد بدأ الصراع وبدأت المعركة ، والمعركة ليست بين الجبار المتكبر وابليس ، فابليس أحقر وأصغر من أن يكون ندا لله عز وجل فليس للأحد الصمد كفوا أحد ، ولكن المعركة بين الإنسان والشيطان ، فالشيطان يريد أن ينتقم وأن يأخذ بثأره من هذا الإنسان الذى رفعه الله عليه والذى كان سببا فى لعنة الله عليه " *قال فأخرج منها فإنك رجيم وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين* " (١٥/٣٥) ، ومقدار الحقد الذى يكنه ابليس للإنسان يبدو واضحا فى الآية التالية " *قال أأسجد لمن خلقت طينا قال أرأيتك هـذا الذى كرمت علىّ لئن أخرتـن إلى يوم القيامة لأحتنكـن ذريته إلا قليلا* " (١٧/٦٢) .

هذا هو أصل المعركة التى زج فيها الإنسان زجا ، أما ميدان المعركة فهو الإنسان نفسه أو على الأصح ارادة الإنسان فكلما عزم الإنسان على استخدام ارادته الذاتية إذا بإبليس يخيط خيوط غوايته مستخدما كل أسلحته فى الاغراء ومناديا للإنسان من نقط ضعفه ممنيا إياه بشهوة أو بشهوة بمال أو بسلطان بجاه أو بخلود فينتصر الشيطان أحيانا ويخفق أحيانا ولكنه يعاود ويعاود لايعى ولايتعب ولايمل ولايهدأ . انها مقدرة وإصرار وطاقة تدعو إلى العجب .

وهذه المقدرة الرهيبة والطاقة اللانهائية والإصرار العجيب تقف كلها عاجزة أمام شيء واحد أمام الإيمان بالله أمام عباد الله المخلصين " *ان عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا* " ١٧/٦٥ . فعباد الله المخلصين قد حددوا ارادتهم وقاموا باختيارهم فاختاروا سبيل الرشد فبعد ذلك ليس للشيطان عليهم من سلطان فحتى إن ضعفوا أو اساءوا إلى أنفسهم مرة أو مرات ، عادوا إلى الغفور الحليم مستغفرين تائبين نادمين " *والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون*"

(١٣٥/٣) ، وهكذا لم تترك رحمة الله التى وسعت كل شيء الإنسان بمفرده أمام هذا العدو اللدود بل تكفلت برعايتها كل مؤمن بالله وكل عبد مخلص لله فى طاعته ، فهؤلاء لايصل إليهم كيد الشيطان لضعفه ، وتتحول بقدرة القادر المقتدر خيوط غوايته واغراءه إلى خيوط واهنة أوهن من خيوط العنكبوت " *إن كيد الشيطان كان ضعيفا* " (٧٦/٤) .

والعدل الحق يقابل تحدى ابليس بتحد آخر يكشف فيه طرقه الملتوية ويحذر الإنسان من وعوده " *واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والاولاد وعدهم ومايعدهم الشيطان إلا غرورا*" (٦٤/١١) . وبعد ذلك قد أعذر من أنذر ، فقد أخبرنا القهار الوهاب بالطريق الذى ينقذنا وينجينا من هذا العدو ، وبالسلاح الوحيد الذى نستطيع أن نتغلب عليه به وحذرنا من طرقه وأساليبه ووعوده فمن تبعه بعد ذلك فلايبشره القوى المنتقم إلا بنفس المصير المشترك مع إبليس " *قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاءً موفوراً* " (٦٢/١٧) .

وهكذا خلق الخالق البارىء النفس البشرية من تراب ثم نفخ فيها من روحه الكريم هذه النفخة التى جعلت منه أهلا للاتصال المباشر بالله ، هذه النفحة التى نرى اثارها من ضمير الإنسان الحى حتى وإن غاب عن رشده واتبع سبيل الهوى ، هذه النفخة نرى آثارها فى رحمة الإنسان بالضعيف العاجز وبالصغير القاصر حتى إذا نسى ربه وشغلته مشاغل الدنيا عن ذكره . هذه النفخة نرى آثارها في تعلق الإنسان وتقديره للمبادىء السامية حتى وإن عاش هو في الحضيض بعيدا عنها ، انها النفخة التى ميزته عن كل الكائنات الحية بل وربما عن كل المخلوقات الأخرى .

وبعد ذلك وهب له الوهاب القادر نعمة الكلام والقدرة على التعلم والمعرفة ثم قام بدور معلمه الأول فعلم آدم مالم تتعلمه الملائكة . ثم كرَّم الكريم الهادى هذا الكائن الجديد فى احتفال سماوى كبير رفعه فيه فوق كل خلقه وأعلنه خليفته على الأرض وأمر الملائكة كلهم بالسجود له ، فحسده الأعداء لهذه المكانة الرفيعة ، ثم وهبه

خاصية أخرى اختصه بها الخالق الكريم وهى الارادة الذاتية المستقلة ، وهى مسؤلية كبيرة إذا وجدت فلابد من وجود ارشادات وتوجيهات بطرق استخدامها ولابد أيضا من وجود حساب على استخدامها وإذا وجد الحساب فلابد من وجود الجزاء والعقاب وهذا الحديث ينقلنا إلى الارادة الذاتية ومسؤلياتها التى تمثل موضوع الفصل التالى .

٧ . ٤ مسؤلية الارادة المستقلة

موضوع الارادة الذاتية أو المستقلة موضوع يطول الحديث فيه وخاصة وأن الكلام فيه يأخذنا إلى الحديث عن المشيئة الالهية . وقد خصصنا الباب الثامن لمناقشة هذا الموضوع أما فى هذا الفصل فسوف نتابع قصة خلق الإنسان والتحدث عن موضوع الارادة الذاتية من تلك الزاوية أى زاوية خلق آدم .

وبالرجوع إلى قرار الحكيم الخبير بمد أجل إبليس إلى يوم البعث والتعمق فى هذا القرار نلمس آيات العدل والحكمة ، فهاهو إبليس بعد أن عاش فى الجنة مع الملائكة أمدا لايعلمه إلا الله يعصى أمر خالقه ويتمرد عليه فى أول اختبار صعب لارادته الذاتية ، وهاهو آدم ذو الارادة المستقلة يعصى خالقه أيضا بعد كل هذا الاكرام الذى اكرمه اياه ، وبعد ذلك الاحتفال المهيب بميلاده فى الملأ الأعلى وبعد أن انزله الولى الحميد منزلا مباركا فى الجنة . إن هبة الارادة الذاتية لابد وأن يتبعها أو يقترن بها فرصة للاختيار وإلا لما وجد فرق بين من وهب هذه الارادة وبين من لم يحصل عليها . ولو وجدنا الجنة ملئت بأمثال إبليس أى من تتغلب عليه نزعة الشر ومن لايتوانى عن التمرد على خالقه إذا وضع أمام أول اختبار لتلك الارادة . فالجنة التى يسبّح ويقدس كل من فيها للملك القدوس السلام المؤمن ويتمتع كل من فيها بخلود بين الملأ الأعلى وفى حضرة المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، ليس بها مكان لإبليس أو لأمثاله واتباعه من الجن والأنس .

فلابد اذن من تصفية هؤلاء الذين يسيئون استخدام هذه الهبة الالهية - هبة الارادة الذاتية - ولأجل تصفيتهم لابد أن يمروا بامتحان كما مر إبليس وآدم فلابد اذن من وجود مسموح ومحظور وكلما كان المحظور مرغوبا صعب الامتحان وظهر معدن الذى يؤديه وقوة ارادته وطاعته لخالقه وعندئذ يبادله خالقه حبا بحب ويكافئه بخلود فى الجنة مع من فيها فهو أهل لها . وأما إذا انهار من يؤدى الامتحان فى أول فرصة وعصى خالقه وتبع هواه ولم يفكر حتى فى استغفاره والتوبة إليه فهو أهل لمكان آخر ، مكان يجزى فيه على شر أعماله وعلى كفره بخالقه ومعصيته .

وهذا ماأعده البر التواب لآدم فقال له " *وقلنا لآدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا منها رغدا حيث شئتما ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين* " ٢/ ٣٥ ، فكانت هذه الشجرة - التى لانعرف الكثير عنها ، من كنهها ونوعها ، ولايهمنا كثيرا أن نعرف - بمثابة المحظور . لقد اذن لآدم وزوجه أن يتمتعا فى الجنة كيفما ارادا وكما اشتهيا ، كل ركن فيها وكل أكل وكل عمل فيها حلال ومسموح به إلا تلك الشجرة فالامتحان قد لايبدو عسيرا ، وقد يبدو أسهل من امتحان إبليس ذلك المتكبر المتعجرف الذى أمره الخالق البارىء بالسجود لآدم الذى خلق من تراب ، وقد يدعونا الفكر إلى القول بأنه لولا وجود ابليس ووسوسته لهما لما زل أي منهما ولظل آدم وزوجه فى الجنة ، فوسوسة ابليس واصراره على الانتقام هو الذى جعل الأمر صعبا وهذا مانفهمه من الآية " *فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه* " ٢/ ٣٦ . لقد استطاع الشيطان وهو خارج الجنة بعد أن طرده القوى المنتقم التأثير عليهما حتى عصيا أمر الخالق جل قدره " *فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ماووري عنهما من سوءاتهما* " ٧/ ٢٠وكما ذكرنا من قبل نحن لانعرف ميكانيكية وسوسة الشيطان وما إذا كانت تتم بواسطة موجات كهرومغناطيسية إلى العقل أو بواسطة مايسمى بالتخاطر أو بوسائل لاندركها أسرع وأكثر فاعلية من تلك ، المهم أنه وجد طريقه إليهما وهما فى الجنة ، وهذا فى حد ذاته يوضح قدرة هذا العدو اللدود علي الوصول إلى الإنسان وعلى الوسوسة له أينما كان .

كذلك إذا حاولنا تحليل سبب زلة آدم وحواء و هما فى نعيم الجنة لأحترنا فى ذلك . فربما كان السبب قوة اغراء أبليس ودعوته الكاذبة لهما " *هل أدلك على شجرة الخلد وملك لايبلى* " ٢٠/ ١٢ . وقد يكون السبب عدم خبرتهما فى التعامل مع هذا العدو وعدم تعودهم على طرق اغرائه ، وقد يكون السبب كذلك مجرد نسيان لأوامر الحسيب الرقيب وعدم التقيد بها خاصة وهما لم يعرفا غير جو الجنة ومايحتويه من رفاهية وحرية ، وقد يكون السبب كما يقولون أن المحظور دائما مرغوب فغريزة حب التطلع فى الإنسان غريزة قوية يصعب فى أحيان كثيرة

التغلب عليها . وقد تكون بطبيعة الحال كل هذه الأسباب مجتمعة وراء تلك الزلة .

وكما نعلم من بقية القصة كما يسردها علينا القرآن الكريم أن العصيان وقع ، وإذا بهما يفيقان على صوت العزيز الجبار وعلى تأنيبه القاسى وعتابه المرير *"وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين "* ٢٢/٧ ، ومما لاشك فيه أن عتاب الخالق وتأنيبه كان له أثر قوى فى نفسيهما فأدركا للتو الخطأ الجسيم الذى وقعا فيه ، وهنا يبدو الجانب الأصيل فى الإنسان وتبدو أثر النفخة الالهية المقدسة فيه فلايصر على خطئه كما فعل إبليس بل يسرع بطلب المغفرة *" قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين "* ٢٣/٧ .

وهكذا وجدت أول تجربة للإنسان فى عصيان خالقه ، هذه التجربة المريرة التى تغلبت فيها شهواته ورغباته على منطقه وإيمانه وأوامر خالقه . لقد أثبت فيها إبليس بأنه فعلا قادر على غواية الإنسان واغرائه على عصيان ربه . وبذلك كانت هذه التجربة هى البداية الحقيقية للصراع بين الشيطان والإنسان صراعا يستمر كل لحظة وكل دقيقة ، صراعا يبدأ فى داخل النفس البشرية ثم ينتج عنه قرارات يتخذها الإنسان تتحول إلى أفعال ويترتب عليها حوادث خارج النفس البشرية وفى بيئتها التى تعيش فيها . أفعال وحوادث لاتؤثر فقط على تلك النفس البشرية بل علي بيئتها وعلى من يعيش معها من أناس آخرين ومن مخلوقات أخرى ، وأحياناً يكون تأثير هذه الأفعال والحوادث تأثيرا ذو مدى بعيد أطول بكثير من عمر تلك النفس البشرية . والجنة كما ذكرنا ليست ميدانا لصراع من هذا النوع ولذلك اختار الحق المتين ميدانا جديدا لهذا الصراع *" قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون "* ٢٥/٧ .وهكذا انتقل ميدان الصراع إلى الأرض حتى يوم البعث المعلوم.

وبالرغم من خطيئة آدم وحواء وعصيانهما لخالقهما فقد أكرمهما التواب الرحيم وعفا عن عصيانهما *" فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم"*

٣٧/٢ . فكان هذا بمثابة اكرام جديد لآدم ، والبر الرؤوف لم يترك بعد ذلك ذرية آدم فريسة لهذا العدو الفتاك فهو يعرف قوته ويدرك قدرته ويعلم ضعف الإنسان أمام غرائزه ويعرف كل صفات الإنسان خير معرفة ومنها صفة النسيان فى الإنسان، فبدأ يرسل إليه من يذكره بخالقه ويحذره من عدوه ويبين له طريق الرشاد " ثم *أرسلنا رسلنا تترا* " ٤٤/٢٣ .

وفى هذا اكرام آخر من البر الرؤوف بعباده وبذرية آدم ، وعلى الإنسان بعد ذلك أن يستخدم عقله ويختار طريقه بارادته الذاتية ، فأما من تبع سبيل الشيطان وعصى ربه " *فأمه هاوية وماأدراك ماهيه نار حامية* " ١١/١٠١ وأما من تبع هدى الله " *فأولئك عنها مبعدون لايسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون، لايحزنهم الفزع الأكبر وتتلاقهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون*"٢١/١٠٣.

٧ . ٥ عبرة النشأة الإنسانية

سردنا فى الفصول السابقة قصة وصول الإنسان على الأرض كما أخبرنا بها الخبير العليم . والقصة لاتروى فسيولوچية خلق الإنسان وكيفية تواجده على الأرض فحسب ولكن ابعادها تصل إلي ماوراء ذلك أنها عرض لحقيقة الإنسان ولفلسفة حياته . وتحتوى على اخبار أهم حادثين فى تاريخه بل فى تاريخ الكون كله وفى تاريخ كل مخلوق وكل كائن حى فى هذا الكون وهما خلق آدم وهبوطه إلى الأرض . لقد كان خلق الله لآدم وتكريمه له كل هذا التكريم فى الملأ الأعلى بداية لصفحة جديدة فى تاريخ وحياة هذا الكون وصل تأثيرها إلى كل مخلوق من خلق الله تعالى .

فنبأ خلق آدم علم به كل ملك وجان فى هذا الكون بعد ذلك الاحتفال الكبير بميلاده ، وميلاد آدم نفسه كان بمثابة ذلك الحادث الهام الذى ترتبت عليه حوادث أخرى فى غاية الأهمية . فقد صاحب مولده وقوع أول حادث عصيان للخالق وطرد إبليس من الجنة ؛ وبدء نزعة الشر والانتقام التى أخذ إبليس فى التلويح بها . فكانت بداية الشر والخير والجزاء والعقاب والجنة والنار .

ثم تلى ذلك معصية آدم وزوجه وحادث الهبوط إلى الأرض فأصبحت الجنة محرمة على الإنس والجن من قبل أن يقوموا بتأدية امتحان الارادة الذاتية ويثبتوا جدارتهم بدخول الجنة . فهذا مانفهمه من حديث الجن عن التغيرات الجديدة التى لاحظوها والتى منعتهم من الاقتراب من الجنة ومن مقر الملأ الأعلى " *وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصداً* " ٩/٧٢ .

ومن ناحية أخرى نجد أن معالم الأرض بدأت شيئا فشيئاً تتغير بعد هبوط آدم ووصول ذلك الخليفة الجديد إلى الأرض وكأن الكائنات الأرضية بدأت تشعر بوصول أميرها ، كذلك بدأ آدم وزوجه يتعودان على الحياة الأرضية بالرغم من الفارق الضخم بينهما وبين الحياة فى الجنة واستطاع بفضل الله وعونه التغلب على كل

الصعوبات " *ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ماتشكرون*" ٧/ ١٠ . فعرف كيف يسد رمقه ويتوصل إلى عمل لباسا يقيه شر البرد ومكانا يأوى إليه ويسكن فيه إذا اشتد الحر وسلاحا يتغلب به على اعدائه " يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم وريشاو لباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون " ٧/ ٢٦ .

إلى هذه الدرجة كانت أهمية حادثى خلق الإنسان وهبوطه إلى الأرض ومع ذلك نجد أن الإنسان نفسه لايريد أن يعى ويقدر أهميته وأهمية هاذين الحادثين فى تاريخ الكون ومدى التغير الذى طرأ علي الكون بعد خلقه ، بل نجده يحاول فى بلاهة ربط نفسه بفصائل القرود ، فالدروانيون والوجوديون الملحدون يهوون بالإنسان إلى الحضيض فلايرون فيه إلا جسدا فانيا وغرائز حيوانية بالرغم من أنهم عجزوا حتى الآن عن تفسير طفرة التطور - التى يزعمون أنها حدثت - بين فصائل الإنسان القرد وبين الإنسان العصرى ، فهم عاجزون كما ذكرنا آنفا عن الإجابة على اسئلة كثيرة منها كيف ومتى بدأ الإنسان الكلام ؟ ومن علمه الكلام ؟ فليس من المنطق أن نفترض أن الإنسان القرد فطن فجأة إلى وجود شيء لم يره ولم يعرفه ولم يسمع به فى أجداده القرود وهو التفاهم بالكلام لابد من وجود مثال يقتدى به أو قوة خارجية تعلمه أعلى من مستواه العقلى والفكرى .

فهذا هو القانون الأول فى التعليم وقد نستطيع أن نضعه في صورة القانون الثانى للديناميكا الحرارية قائلين أن العلم والمعرفة لاينتقل إلا من مستوى علم ومعرفة أعلى إلى مستوى أقل وليس العكس، ولذلك نرى دائما أن مستوى المدرس أو المدرب أو الحكيم لابد وأن يكون أعلى من مستوى الطالب أو التلميذ أو متلقى العلم والمعرفة ، فالوالدان يستطيعان الكلام وهم أكثر تجربة من أطفالهما ولذلك يستطيعان تعليمهم تسمية الأشياء والكلام وغير ذلك والمعلم أكثر علما وثقافة فى مادته من التلميذ ولذلك تنجح المدرسة أو الجامعة في تأدية رسالتها ، والمدرب على مستوى عقلى وفكرى أعلى من مستوى الحيوان الذى يدربه سواء كان كلبا أو قطا

أو حصانا أو غير ذلك ولذلك يستطيع أن يدرب الحيوان وهكذا . فمن ذا الذى علم الإنسان القرد تسمية كل شيء باسمه ؟ ومن علمه الكلام ؟ ومن علمه الكتابة ؟ ومن علمه الفلاحة والزراعة ؟ .. فكل منها يكون منطقا جديدا تماما على فصائل الإنسان القرد .

وهنا تتجلى عظمة القرآن وإعجازه فبعد نزوله بقرون عديدة نجد فيه الجواب الشافى على كل هذه الأسئلة الحائرة الجواب الذى يمحق ادعاءات المغرضين وأكاذيبهم وكأن هذه الآيات نزلت فيهم . فهو الذى علم الإنسان أسماء الأشياء والكلام "*وعلم آدم الأسماء كلها* " ٢/ ٣١ وهو الذى علمه الكتابة " *خلق الإنسان علمه البيان* " ٢/٥٥ " *الذى علم بالقلم* " ٤/٩٦ ، وعلمه صنع دروع لتحميه " *وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم* " ٢١/ ٨٠ وعلم الإنسان أشياء أخرى لم يكن ليعلمها لولا أن علمها له الله " *علم الإنسان مالم يعلم* " ٩٦/ ٥ " *وعلمناه من لدنا علما* " ١٨/ ٦٥ ، فهذا هو الجواب المقنع الشافى لتفسير تلك الطفرة الهائلة بين الإنسان العصرى والإنسان القرد فالخلاق البارىء هو الذى قام بخلق آدم أبو الإنسان العصرى وهو الذى قام بتعليمه كل ذلك ، لقد كان القوى الحكيم هومعلم آدم ومعلم البشر كلهم تلك الخواص الرئيسية التى ميزته منذ وصوله إلى الأرض عن بقية المخلوقات وخاصة مايسمى منها بالإنسان القرد ، ولهذا السبب أيضا نرى فى الإنسان مميزات وصفات أخرى عديدة جعلها الله فيه وحده لتساعده على حمل أعباء الخلافة وتأدية رسالته ، لقد أنعم عليه بالتفكير المتسع والمنطق المرتب ، بالمثل العليا والقيم الأخلاقية . بالقدرة على التعمق والكشف والتنقيب وراء الأسباب ،، بذاكرة فريدة وأفق متسع ، بحب للجمال وبخيال واسع ، وبإرادة ذاتية لايتمتع بها كائن آخر على الأرض ، وأخيرا وليس بآخرا بأمانة اضطلع الإنسان بحملها دون السماوات والأرض والجبال لنا عودة لها فى الفقرة التالية .

كل هذه كانت فوارق فى الخواص الرئيسية والصفات والمميزات بين فصائل الإنسان القرد والإنسان العصرى ولنا الآن أن نسأل الدروانيين من أين جاءت كل

هذه الخصائص والخواص ؟ من القرود ؟ ومالنا لانرى قرودا لها بعض تلك الخواص ؟

كان هذا بمثابة الفرق الأول بين الرسالة الألهية التى وصلتنا عن طريق القرآن فى موضوع خلق الإنسان وفى سبب وجوده على الأرض وفى خواصه وخصائصه التى وضعها الخالق فيه أو علمها له وبين المنطق الدرونى الملحد . أما الفرق الثانى فهو في الدور النبيل الأساسى الذى يلعبه الإنسان على هذا الكوكب بل فى الكون بأكمله . فالدروانيون والوجوديون لايرون فى الإنسان غير حيوان ينتهى بموته ، ولايستطيعون تحديد رسالة معينة سامية لهذا الإنسان فى هذا الكون ، أما العليم البصير فيطلعنا على دور هام وحيوى يضطلع الإنسان به وهو حمله للأمانة " إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا " ٧٢/٣٣ . لقد قيل أن الأمانة هى الارادة الذاتية المستقلة ولكن الجن يشارك الانس فيها ، فكل منهما له ارادته الذاتية كما كان لإبليس وآدم ارداة مستقلة فأساء استخدامها . ماهى اذن الأمانة التى حملها الإنسان ؟ .

الإنسان ينفرد من بين كل المخلوقات بخاصية المعرفة الواصلة ببارئه والاهتداء المباشر لوجوده والطاعة الكاملة لأوامر خالقه ثم الدعوة إلي وحدانيته وإلي عبادته فليس من بين الكائنات الحية أو المخلوقات سواء أكانت جمادا مثل السماوات والأرض والجبال أو غير ذلك أو حتى الجن من يدعو إلى سبيل الله ولكن الإنسان يدعو إلى سبيل الله .

والدعوة تكون لمن يحتاجها . ومن البديهى أن الملائكة لايحتاجون لدعوتنا فكلهم عارفين الله عابدين له ومسبحين بالأسحار .

والسماوات والأرض والجبال لا يحتاجون لتلك الدعوة فإرادة الخالق هى التى أوجدتهم فليس للسماوات أن تنطبق علي الأرض إلا بأذنه ، ،كذلك الكائنات الحية الأخرى، انها تعرف الخالق مباشرة وتسبّح له وتمتثل لأوامره ، انها لا تسأل عما تعمل وعما تأكل أو تقل أنها لا تبلغ معصيه الخالق لأنها لا تتمتع بالاراده

المستقلة . فالدعوة إذن تكون بين الأنس والجن فهما مخلوقات الله التى تتمتع بالأراده المستقلة وتحمل مسؤلياتها .

وقد أمرنا الوالى المتعالى بدعوة الناس وعرفنا كيف نقوم بذلك " *أدع الى سبيل ربك بالحمكة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين* " ١٢٥/١٦ فهذه هى الطريقة التى يجب أن نتبعها فى دعوة الأنس. أما دعوة الجن فلم يأمرنا الله بها مباشرة أو علنا فليس . بيننا وبينهم لغة كلام ولا وسائل تفاهم وإقناع معروفة ولكنه أمرنا بها ضمنا . فقد أمرنا بتلاوة القرآن " *وأتل ما أوحي إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا* " ١٨/ ٢٧ : " *أتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة* " ٤٥/٢٩ "*وأمرت أن أكون من المسلمين وأن أتلوا القرآن فمن أهتدي فإنما يهتدى لنفسه* " ٩٢/٢٧" *الذين أتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته* " ١٢١/٢ والأسباب التى من أجلها أمرنا المعز المذل بقراءة القرآن كثيرة ؛ ففى القرآن شفاء لما فى الصدور " *قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور* " ٥٧/١٠ وبقراءة القرآن وبذكر الله تطمئن القلوب " *ألا بذكر الله تطمئن القلوب* " ٢٨/١٣ ، وفى القرآن رحمة وشفاء للمؤمنين " *وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين* " ٨٢/١٧ وكذلك جعل الله فى القرآن هدى وبشرى للمؤمنين " *إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا* " ٩/١٧ . والله جعل فى القرآن أيضا ذكراً ورحمة للعالمين " *وماهو بقول شيطان رجيم فأين تذهبون إن هو إلا ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم* " ٢٩/٨١ " *قل لاأسألكم عليه أجراً إن هو إلا ذكرى للعالمين* " (٩٠/٦) .

والمقصود بالعالمين فى الآيتين الأخيرتين هو عالم الإنس وعالم الجن ، فقد عرفنا السميع البصير كيف اهتدى نفر من الجن بمجرد أن استمعوا إلى القرآن " *قل أوحي إليَّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا* " ٢/٧٢ لم يحتاج هذا النفر من الجن إلى إقناع أو موعظة

منا لقد كان نور القرآن وحده ومايحتويه من معانى سامية واقناع يصل إلى حد الإعجاز كافيا بهداية الجن . ونحن نرى فى القرآن الكريم آيات كثيرة وجهت للجن والإنس على السواء نذكر منها " *يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لاتنفذون إلا بسلطان* " ٣٣/٥٥ " *يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى* " ١٣٠/٦ " *قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله*" ٨٨/١٧ " *أرنا اللذين أضلانا من الجن والانس نجعلهما تحت أقدامنا* " ٢٩/٤١ " *وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون* " ٥٦/٥١ . فهذه كلها آدلة علي أن القرآن نزل للإنس والجن على السواء " *وماأرسلناك إلا رحمة للعالمين* " ١٠٧/٢١ . فإذا نحن قمنا بدعوة الإنس إلى الإسلام كما أمرنا الله وواظبنا علي تلاوة القرآن نكون قد أدينا الأمانة - أمانة دعوة العالمين - عالم الإنس وعالم الجن - إلى دين الحق الحميد .

وإلى جانب هذه الأمانة الكبيرة فالإنسان لابد وأن يقوم بمهام الخلافة ويتحمل مسؤلياتها ويحيا على الأرض ويتمتع بحياته عليها . فعلى الإنسان أن يتولى الإمارة والإمامة بالحكمة والعدل والرحمة ليكوّن مع الكائنات الحية أنظومة متكاملة، يعيش معهم فى توافق وانسجام فحياته وسعادته على هذه الأرض مربوطة بحياتهم ومهام الخلافة على الأرض تتطلب منه اكتشاف قوانين الطبيعة والتعرف على نواميس الكون وموارده ثم استخدامها لسد حاجته لصالحه وفى تطوره وفى متعته ، فكل متعة حلال طيبة ، سواء إن كانت مشرب أو مأكل أو ركوبة أو سكن أو زوج أو ولد أو منظر طبيعى خلاب أو ملبس و ... فكل موارد الأرض الطبيعية إنما جعلها الله لراحة ومتعة ورقى هذا الإنسان " قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة" ٣٢/٧ .

وفى هذا الإطار المتكامل المتآلف يتعامل الإنسان مع الكون بروح المودة والصداقة ، ويحمد الله كلما اكتشف قانونا جديدا أو موردا حديثا ييسر له الحياة

على هذا الكوكب ، أو تعرف على سر من أسرار هذا الكون أو اخترع جهازا أو آلة تعينه على الرقى والراحة والمتعة . وهو فى أثناء ذلك مرتاح البال مطمئن النفس لأنه يعبد خالقه ويؤدى أمانته التى عهدت إليه أمانة الدعوة لدين الواحد الأحد .

والآن ننتقل إلى الفرق الثالث بين ماأخبرنا به البرُّ العفو فى خلق الإنسان ومايخبرنا به الملحدون الضالون ، وهو وجود عدو خبيث للإنسان يرانا من حيث لانراه "*إنه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم* " ٢٧/٧ وله القدرة على الوسوسة الينا وخلط حقيقة وأهمية الأمور بالنسبة لنا حتى نسىء استخدام ارادتنا الذاتية ، وهو عاقد العزم أن يغوينا مااستطاع عن عصيان أوامر خالقنا بل وعن اضلالنا عن الطريق إليه . فبالرغم من التقدم الهائل الذى أحرزه الإنسان فى ميادين العلم والتكنولوچيا والقدرات الكبيرة التى وهبها الرزاق إياه ، هناك ضعف معين فى الإنسان يعلم به هذا العدو فيأتى إليه من خلاله من حيث لايعى الإنسان ولايشعر به فيختلط عليه الأمر ويصعب عليه الاختيار بين رغباته الأساسية ومثله العليا التى أمره بها خالقه والتى تقربه منه .

والخالق الكريم لم يترك الإنسان وحده فريسة لهذا العدو الباطش ولكن رحمة ورأفة به ارسل إليه رسله تترا ، للترغيب والتذكير والترهيب ولإنارة سبيله على هذه الأرض إلي بارئه ولإعطائه نبذات عن طرق تقوية ارادته والاستعلاء على هذا الضعف الذى يتسلل إليه عدوه من خلاله ، ثم جعله بعد ذلك مسؤولا عن قراره وعن استخدامه لعقله ومنطقه ، وزيادة فى رحمته ونعمه على هذا الإنسان جعل البر الرؤوف باب التوبة مفتوحا له فى أى وقت وفى أى مكان ، فإذا ضعف ثم قوى أو غوى ثم تاب أو ضل ثم اهتدى أو عثر ثم نهض أو نسى ثم تذكر .. وجد الباب دائما مفتوحا أمامه فيغفر الله له ذنبه بل قد يبدل سيئاته كلها حسنات" *ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الاتخافوا ولاتحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الاخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم* " ٣٢/٤١ " *وإنى لغفار*

لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى " ٢٠/٨٢ " *إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيما* " ٢٥/٧٠ .

أما من رفض الهداية واتبع سبيل الغواية فأطلق لرغباته وشهواته العنان بدون حسيب ولارقيب فأولئك الذين ضلوا السبيل " كما بدأكم تعودون فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون " ٧/٣١ فمعركة الإنسان مع هذا العدو اللدود هذا الشيطان اللعين هى المعركة الرئيسية المستمرة ليلا ونهارا من حياته لمماته ، وعلى الإنسان أن يعد العدة ليكسب هذه المعركة فهى معركة الضمير وهى نفسها معركة الحياة .

والمناقشة تطول بين ماأخبرنا به الحق الرشيد وبين مايخبرنا به الملحدون والوجوديون بين الحق والباطل بين النور والظلمات ، ولكننا سنكتفى بهذا القدر لنبين فرقا آخرا هاما بين منطق القرآن الكريم ودين الإسلام والمعتقدات التى تروج الآن بل وروجت من أمد بعيد فى المسيحية . لقد أخبرنا الغفور الرحيم بأنه غفر لآدم خطيئته " فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم " ومعنى ذلك أن كل من يولد من بنيهما وبناتهما يولودون بصفحات بيضاء إذا اخطأ أحدهم فإنما يخطىء على نفسه " من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولاتزر وازرة وزر أخرى " ١٧/١٥ فليس هناك اذن مكان لخطيئة موروثة تثقل عاتق الإنسان وليس هناك مجال ولاحاجة لاتخاذ الاله ابنا فى صورة المسيح لكى يعذب ويصلب ويكفر عن البشر تلك الخطيئة الموروثة . إن الأمر أيسر من ذلك وأكثر وضوحا ومنطقية وعدالة . لقد أخطأ آدم فهبط إلى الأرض ، ثم استغفر ربه فغفر له ، وانتهى أمر خطئه ، وبدأ هو بعد ذلك وزوجه وكل بنيه وبناته يمرون بامتحان مدى حياتهم على الأرض ليثبت - من يريد أن يثبت - جدارته بالعودة إلى الجنة فى صحبة الملأ الأعلى وفى حضرة الحق العلى القدير . لقد كان فى خروج آدم من الجنة وهبوطه إلى الأرض عقابا على معصيته ، ولكن حياة الإنسان على الأرض ليست عقابا لبنى آدم على خطيئة أبويهم . لقد هبط آدم إلى الأرض

ليتولى هو وبنيه وبناته أمور الخلافة علي الأرض كما قدرها القادر المقتدر وليحمل الأمانة - أمانة الدعوة لدين الله - وليعبد خالقه وليؤدى امتحانه وليعود بعد ذلك من أطاع بارئه منهم إلى خلود الجنة ونعيمها إلى الحمد والتسبيح لمالك الملك ذو الجلال والإكرام ، وليجزى على سوء عمله من كفر وغدر .

هذا بعض مانستفيده ونستخلصه من كيفية النشأة الإنسانية على الأرض كما أخبرنا خالقنا بها وتأثير ذلك وارتباطه بوجودنا وبمصيرنا على هذه البسيطة .

٦.٧ مولد الإنسان على الأرض

تتبعنا فى الفصول السابقة عملية خلق آدم من طين أو تراب " ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين " ١٢/٢٣ والمراحل المختلفة التى مرت بها وانتهت بوجود آدم وزوجه على الأرض . وبدأ بعد ذلك الإنسان فى التزايد والتكاثر . وعملية تكاثر الإنسان على الأرض هى عملية خلق مختلفة تتم على مراحل عدة فى صورة متناهية فى الدقة والنظام . والقرآن الكريم يلخص لنا هذه المراحل فى سهولته ودقته المعهودة " *يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام مانشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لايعلم من بعد علم شيئا* " ٥/٢٢ .

فالخالق البارىء يربط البعث بالخلق فيخاطب الناس أجمع المؤمن منهم والكافر ليجيب على اسئلة السائلين وتعجبهم فى قولهم " *أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون* " فيذكرهم أن نشأتهم الأولى بدأت من تراب ، فقد أثبتت التحليلات العلمية أن التراب يحتوى على خليط من جميع العناصر الكيميائية الأساسية الداخلة فى تكوين جسم الإنسان ، ونحن نرى من مشاهدتنا أن أجسام الموتى وعظامهم تتحول إلى تراب ، فما العجب فى أن يبعثنا البارىء المصور مرة أخرى من تراب ؟

ثم يواصل القرآن حديثه فيخبرنا بأسرار خلق الأجيال التى تلت آدم خلقنا نحن جميعا . لقد بدأت من نطفة وهى المرحلة الأولى التى نعرفها . والنطفة هى القليل من ماء والمقصود هنا ماء الرجل أو السائل المنوى " *ألم يك نطفة من منىّ يمنى*" ٢٧/٧٥ .فهذا هو الأصل التناسلى للإنسان الذى يبدأ فى خلقة الجديد من نطفة ، وقد فسر لنا العلىّ القدير فى آية أخرى بعض خواص هذه النطفة فقال " *انا خلقنا الإنسان من نطفة امشاج* " ٢/٧٦ والأمشاج هو الاخلاط .

والبيولوچى تخبرنا أن السائل المنوى هو خليط من عدة مركبات ومكونات أولها

افرازات الخصيتين من الحيوان المنوى والسائل الذى يعوم فيه ، وتجىء بعد ذلك افرازات الغدد الحويصلية التى توجد قريبة من البروستاتا ، ثم افرازات البروستاتا نفسها التى تعطى للسائل المنوى لونه ورائحته المميزة ، وأخيرا افرازات الغدد التابعة للمجارى البولية ، والسائل المنوى ليس مجرد خليط من هذه المركبات . انه يحتوى على سر الحياة ، فهو يحمل صفات الأب الوراثية أى نسل هذا المخلوق الآدمى ، وهذا مايخبرنا به القرآن فى آية أخرى " *الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين* " ٣٢/٨ .

ولقد أسكن الخالق المصور هذه النطفة في مكان أمين بعيدة عن التلوث وبعيدة عن أى تأثيرات خارجية فانتقلت من أعضاء الرجل التناسلية إلى رحم المرأة " *ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه فى قرار مكين* " ٧٧/٢١ فالقرار المكين قد يعنى اعضاء الرجل التناسلية وقد يعنى رحم المرأة وقد يشملهما معا . وفى رحم المرأة تبدأ المراحل التالية لخلق الإنسان وهى تكوين العلقة .

والبيولوچى تخبرنا مرة أخرى بأن خلايا البويضة المخصبة تبدأ فى الانشطار والتضاعف اثناء رحلتها فى البوق الفالوبى (Fallobian tube) حتى يصل عدد خلاياها إلى ست عشرة خلية بعد ثلاثة أيام من عملية الاخصاب . وبالرغم من التكاثر فى عدد الخلايا إلا أن حجم البويضة المخصبة يظل كما هو لايتعدى عشرىّ المليمتر (٢و٠ مم) . أما شكلها الخارجى فلا تكاد تميزه العين المجردة من النطفة ، وتستغرق رحلة البويضة المخصبة ثلاثة أو اربعة أيام لتصل إلى مدخل الرحم . وهنا وأثناء دخولها فجوة الرحم أو خروجها من البوق الفالوبى نلاحظ تغيرات هامة فى البويضة المخصبة ، فالخلايا المكدسة على بعضها تبدأ فى التراجع نحو جدار البويضة المخصبة لتكون حيزا داخليا مليئا بالسائل الذى سيصبح فيما بعد بيئة الجنين . وفى نفس الوقت نجد أن السطح الخارجى للبويضة المخصبة أصبح ذو نتوءات ملحوظة ستكون فيما بعد أنسجة المشيمة أو الخلاص (placenta) والتى ستقوم بتوصيل الدم والغذاء إلى الجنين . ولكن هذه النتوءات تقوم فى

البداية بوظيفة أخرى حيوية وهى مساعدة البويضة المخصبة فى التعلق بجدار الرحم وهنا تبدأ المرحلة الهامة التالية فالبويضة المخصبة قد تحولت إلي علقة (blastula) أى إلى جسيم يستطيع التعلق بجدار الرحم ، فبمجرد دخول العلقة فى فجوة الرحم تسبح فيه بعض الوقت وأخيرا وقبل نهاية الأسبوع الأول تهبط العلقة على جدار الرحم فتلتصق نتوءاتها الخارجية به ومن ثم تبدأ عملية انزراع العلقة فى جدار الرحم (شكل ٧ر٥).

وتستقر العلقة فى الرحم مدة محددة قدرها الحى القيوم " *ونقر فى الأرحام مانشاء إلى أجل مسمى* " وحسبها العلم فوجدها ٢٨٠ يوماً ، وقد فسر كثير من المفسرين العلقة على أنها كتلة دم ، وهذا التفسير من الناحية العلمية خطأ ، فالجنين لايمر فى مراحل نموه بأي مرحلة ، يكون فيها دما أو جلطة دموية ، ويبدو أن هذا التفسير نقل عن ارسطو الذى كان يعتقد أن السائل المنوى يختلط بدم الحيض ليكون الجنين . وتسمية هذا الجسم " بالعلقة " لايحتاج لتفسير أكثر من ذلك فأهم صفة لهذا الجسيم أنه يعلق بجذار الرحم وإلا انزلق على جدار الرحم وخرج من الجسم كله . والآية الكريمة " *اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق* " ٢/٩٦ تثبت هذا المعنى وتوضح أهمية هذا الاسم . وقد جاء ذكر العلقة فى أكثر من مكان فى القرآن الكريم وبنفس الترتيب ، فهى دائما تلى النطفة " *فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة* " ٤/٢٢ " *هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة* " ٣٥/٧٥ .

هذه كانت المرحلة الثانية ، أما المرحلة الثالثة فهى مرحلة المضغة وعلم الأجنة يخبرنا بأن العلقة تزرع خلال الأسبوع الثانى وتبدأ نتواءاتها فى التطور وتلوين أنسجة المشيمة (palcente) فى شكلها الأول ليتم بواسطتها تغذية الجنين ، أما خلايا العلقة فتبدأ فى اتخاذ شكل مستوى سطح ذا طبقتين من الخلايا تنمو إلى ثلاث طبقات فى الاسبوع الثالث وطبقة الخلايا الداخلية (ecto derm) تُصنّع مكونات الجلد والمخ والجهاز العصبى المركزى وبعض أجهزة معينة أخرى مثل

عدسات العين والأذن الداخلية . أما الطبقة الوسطى (شكل ٦.٧) (mesoderm) فتنتج مكونات الهيكل العظمى والعضلات والقلب والأوعية الدموية والأنسجة التى تصل الأعضاء المختلفة ببعضها وأما الطبقة الخارجية من الخلايا (endoderm) فتصنع مكونات الجهاز الهضمى والجهاز البولى والقناة السمعية والأذن الوسطى والكبد . وهذه الطبقات كلها تتكون من خلايا وأنسجة متماسكة ذات كزازة بخلاف المادة الهلامية أو شبه الهلامية التى كونت العلقة

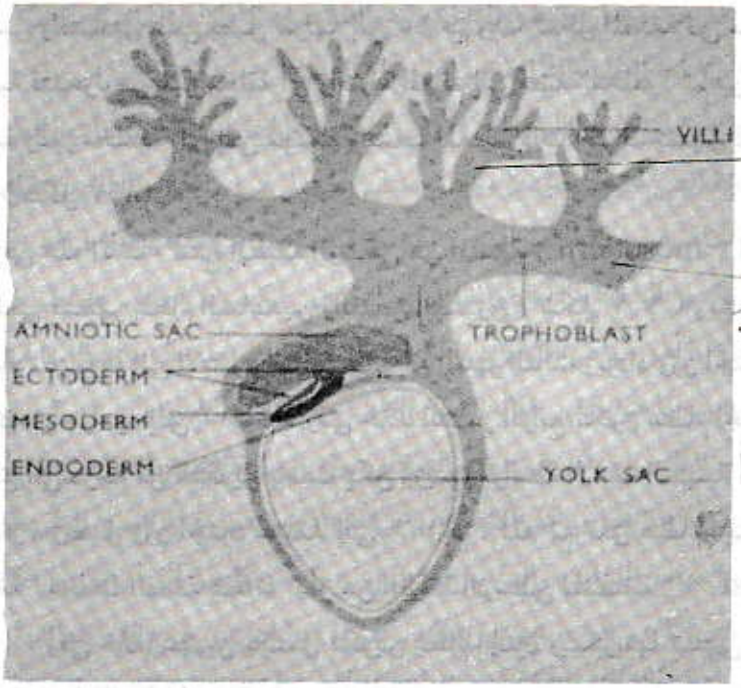

شكل ٦.٧ علقة متقدمة النمو تبدو جذورها المتفرزة فى جدار الرحم لتكون فيما بعد المشيمة . كذلك نرى خلاياها وقد أنقسمت إلى ثلاث طبقات من الخلايا الطبقة الداخلية (ectoderm) والوسطى (mesoderm)والخارجية (endodeu) .

والنطفة ، وتسمية هذا الجسيم بالمضغة يظهر لنا أهم خواصه وهى التماسك والكزازة ويبدى جمال ودقة التعبير القرآنى (شكل ٧ . ٧) .

والمضغة تمر بمرحلتين أساسيتين من التطور المرحلة الأولى وتستغرق الاسبوعين الثانى والثالث وتبدأ بجسم لامعالم مميزة له يأخذ فى النمو من أجزاء من المليمتر حتى يصل حجمه فى أول الأسبوع الرابع إلي حوالى ميليمترين . وفى خلال الأسبوع الرابع يبدأ أول تطور لأعضاء الجنين فتتكون معالم الرأس والأطراف والرقبة ويزداد طول المضغة فيصل إلى ٣-٤مم ، ويستمر نمو المضغة فى الاسبوعين الخامس والسادس حتى يصل طولها إلى ١٥ مم وهنا تدخل المضغة فى مرحلتها الثانية فتتحول من غير مخلقة أي واضحة المعالم إلى مضغة مخلقة " ثم من مضغة *مخلقة وغير مخلقة* " أى إلى مضغة واضحة المعالم ذات أطراف يسهل تميز كل منها (شكل ٧ . ٨) .

وفى هذه الأثناء تنتج الطبقة الوسطى من المضغة (mesodern) الهيكل العظمى فتظهر عظام الساعدين والقفص الصدرى (شكل ٧ . ٩) ويستمر نمو العظام وظهورها إلى الاسبوع الثانى عشر أى الشهر الثالث ويزداد وزن الجنين تبعا لذلك من جرامين إلى ١٢ جم ، وفى خلال الشهر الرابع تكون عظام الجنين قد وصلت إلي درجة من التكوين بحيث يمكن رؤيتها بواسطة الأشعة السينية (x – raus) ويصل وزن الجنين عندئذٍ إلى ١٠٠جم . لقد تم خلق عظام الجنين من المضغة " *فخلقنا المضغة عظاما* " أو من الطبقة الوسطى للمضغة " (mesod-ern) ، وفى خلال شهرين يكتمل تكوين عظام الجنين وبتكوينها تنتهى المرحلة الرابعة وتبدأ المرحلة الخامسة .

وتستمر هذه المراحل المتتالية فى تطور الجنين وتتم عملية تشكيل الجنين – أو الإنسان الجديد – تلك العملية الدقيقة الفريدة التى مر بها بها كل منا – بعيدا عن أعين المتطفلين وعن كل المؤثرات الخارجية من أشعة وأصوات وصدمات ، تتم داخل عدة أغشية وطبقات مختلفة منها الكيس الأمنيوسى وجدار الرحم والغشاء

البريونى وجدار البطن ثم الجلد الخارجى . وتكتمل عزلتها وحمايتها من الأخطار والصدمات الخارجية بواسطة ثلاث تجويفات لانجد أفضل منها لتفسير الظلمات الثلاث التى أخبرنا بها العليم الخبير " *يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث* " ٦/٣٩ . فالتجويف أو الظلمة الأولى هى ظلمة الكيس الأمينوسى المليء بسائل الجنين الذى ينمو فيه الجنين والذى يمتص الصدمات الخارجية والظلمة الثانية هى التجويف الرحمى ينمو فيه الجنين ويمتلىء به الرحم فى الأشهر الأخيرة والظلمة الثالثة هى مايعرف بالتجويف البريتونى الذى يقع بين جدار الرحم الخارجى وجدار البطن الداخلى ، والظلمتان الأولى والثانية يتضحان من شكل ٧ . ٧ أما الظلمة الثالثة فهى المحيطة بالرحم .

وصف دقيق فريد للمراحل الأولى لتكوين الجنين وللتجويفات والطبقات والأنسجة التى تحيط بالجنين وتحميه حتى يكتمل نموه ، وهذا بالتالى ينقلنا إلى المرحلة الخامسة مرحلة النمو السريع للجنين فبعد اتضاح معالمه ونمو اطرافه واكتمال عظامه تكسى العظام باللحم ويستمر نمو الاثنين " *فكسونا العظام لحما ثم انشأناه خلقا آخر* " فأهم خواص الشهرين الخامس والسادس - بعد تكوين عظام الجنين هو النمو السريع للجنين ففى خلال الشهر الخامس يصل وزن الجنين إلي ٣٠٠ جم ويبدأ شعره فى الظهور ويمكن تميز ضربات قلبه،وفى نهاية الشهر السادس يصل وزن الجنين إلى ٦٠٠ جم ويمكن الشعور بحركاته . ويستمر هذا النمو السريع خلال الشهور السابع والثامن والتاسع فيزيد وزنه من ٦٠٠ جم إلى حوالى ٣٤٠٠ جم وطوله من ٣٠ سم إلى ٥٠ سم وبذلك يكتمل نمو الجنين فيخرج إلى العالم ليصبح خلقاً آخر " *ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين*" ٢٣/١٤(شكل٧. ١٠).

وفى مرحلة معينة من مراحل تكوين الجنين - يقدرها البعض بثلاثة أشهر - ينفخ الله فيه من روحه الكريم " ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ماتشكرون " ٣٢/٩ فهبة الروح للإنسان تأتى من المحيى المميت يهبها لكل نفس على حدة كما وهبها

لآدم ولعيسى ابن مريم من قبل ، والروح شيء لم يصل العلم بعد إلى كنهها ولايستطيع أن يخبرنا بالتحديد متى تدخل فى الجسم ومتى تخرج منه "*ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى ومأأوتيتم من العلم إلا قليلا* " ١٧/ ٨٥ .

هذه هى أطوار تطور الإنسان المختلفة التى قدمها لنا القرآن فى إيجاز ودقة ووضوح وسهولة - كما هو عهدنا باسلوب القرآن الكريم العجيب المعجز . فالمناقشة السابقة تبين أن معانى خلق الإنسان وتطور الجنين الآدمىّ كما وردت فى القرآن فى مراحلها المتعددة أصبحت الآن مفهومة فهما كاملا واضحا فى مشكاة ماوصل إليه علم الأجنة والبيولوچى فى القرن العشرين . لقد فسر بعض المفسرين مراحل نمو الجنين حسب مفهومات عصر نزول القرآن وعاش فى ظلال ذلك التفسير ملايين البشر لقرون عديدة ، حتى جاء العلم الحديث ليخبرنا بأن العلقة هى جسم أو جسيم له من الخواص مايجعله يعلق فى جدار الرحم وأن اسمه هو أدق وصف له وتفسير لمهمته ، وأن المضغة هى جسيم آخر لاهلامى انسجته على درجة من الكزازة والتماسك ، وأن تشبيهه بالشيء الذى يمكن مضغه هو أفضل وصف له يبين أهم خصائصه . كذلك عرفنا العلم الحديث بعدم وجود أى تشابه بين أول مراحل المضغة وبين صورة الإنسان فالمضغة غير مخلقة غير واضحة المعالم ، قد يستحيل التميز فى هذه المرحلة بين مضغة حصان أو فيل أو إنسان أو قرد ، وفى خلال أيام قليلة تبدأ معالم المضغة فنرى الرأس والجسم والأطراف ثم الرقبة والعينين والأذنيين وبقية الأعضاء . ولا يمضى سوى أسابيع حتى تصبح المضغة مخلقة ويظهر فيها كل معالم الإنسان ، كل هذا وهى لاتتعدى فى طولها بضعة مليمترات وفى وزنها بضعة جرامات ، ثم تبدأ خلايا وطبقات هذه المضغة فى تكوين هيكلها العظمى الذى سيحفظ لها شكلها الخارجى .

وعندئذ تبدأ مرحلة النمو السريع فتزداد عضلات وأنسجة الجنين أى تزداد كسوة اللحم فيه ويزداد وزنه حتى يكتمل نموه ويصبح خلقاً آخر " *ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة*

فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين " .

وفى ختام هذا الباب نذكر هذه الملاحظة العابرة . فهذا الوصف الدقيق لأدوار تطور الجنين الآدمى الذى يتحدى بوضوحه ودقته وسهولته آخر تطورات علم الأجنة لم يكن ليصدر إلا من الخالق البارىء المصور الذى يصورنا ويشكلنا فى الأرحام كيف يشاء . فقد نزل القرآن الكريم فى عصر لم يعرف فيه الميكروسكوب ولا الأشعة السينية ولاحتى علم الأجنة ، لقد كان كل مبلغهم من العلم هو اعتقاد ارسطو أو نظريته فى تكوين الجنين وهى اختلاط السائل المنوى بدماء الحيض قبل نزوله .

ووصف تلك التجويفات أو الفراغات التى يتم فيها خلق الجنين بالظلمات الثلاث لهو تشبيه يعجز عنه أى متخصص بل يصعب فهمه على كثير منهم ، فالطبيب الذى يقوم بعملية قيصرية يستطيع أن يحسب بسهولة عدد الأغشية التى يقطعها بمشرطه حتى يصل إلى الجنين ولكنه يجد صعوبة فى حساب عدد التجويفات أو الظلمات التى يمر بها قبل أن يصل إلي الجنين وكثيرا مايختلط الأمر عليه فيظن أنه لم يمر إلا بظلمتين وهما الظلمتين الثالثة والأولى أى التجويف البريشونى والكيس الامينوسى والسبب فى ذلك واضح ، فالطبيب لايقوم بالعملية القيصرية إلا بعد الاكتمال التام فى نمو الجنين وعندما يصبح خلقاً آخر فيكون حجمه قد زاد إلى درجة التصاق جدار الكيس الأمينوسى بجدار الرحم الداخلى فتتلاشى الظلمة الثانية أو تكاد وذلك لأن الكيس الامينوسى أصبح يملأ التجويف الرحمى ، ولكن فى أثناء خلق وتشكيل الجنين فى الأسابيع الأولى وعندما لايزيد حجمه على عدة مليمترات تتواجد الفجوة الثانية وتبدو واضحة المعالم لاسبيل إلي إنكار وجودها ولو أن الطبيب لايراها وقد لايراها إنسان لايراها إلا خالقها الذى صورها لنا وأخبرنا بوجود تلك الظلمات الثلاث " *وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا* " (٢٥/٥٤) .